حُذَيفَة بن اليمَان

عَدُوّ النِّفَاق، صَدِيق الوُضُوح

خرج أهل المدائن أفواجًا يستقبلون واليهم الجديد الذى اختاره لهم أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه...

خرجوا، تسبقهم أشواقهم إلى هذا الصحابى الجليل الذى سمعوا الكثير عن ورعه وتُقَاهُ... وسمعوا أكثر عن بلائه العظيم فى فتوحات العراق...

وإذ هم ينتظرون الموكب الوافِدَ، أبصروا أمامهم رجلًا مُضيئًا يركب حمارًا عَلَى ظهره إكافٌ قديمٌ، وقد أَسْدَل الرجل سَاقيه، وأمسك بكلتا يديه رغيفًا ومِلحًا، وهو يأكل ويمضغ طعامه..!!

وحين توسط جمعهم، وعرفوا أنه «حُذَيفة بن اليمان» الوَالى

الذى ينتظرون، كاد صوابهم يطير... !!

ولكن، فيمَ العجب.. ؟!

وماذا كانوا يتوقعون أن يجيء اختيار عمر... ؟!

الحق أنهم معذورون؛ فما عَهِدَت بلادهم أيامَ فارس، ولا قبلَ فارس وُلَاةً من هذا الطراز الجليل.. !!

* * *

وسار حُذيفة، والناس محتشدون حوله، وحافُّون به..

وحين رآهم يُحدِّقُون فيه كأنهم ينتظرون منه حديثًا، ألْقى على وجوههم نظرة فاحصة، ثم قال:

«إيَّاكم ومَوَاقفَ الفِتَن».. !!

قالوا:

وما مَوَاقفُ الفتن يا أبا عبد الله.. ؟

قال:

«أبوابَ الأمراء..

يدخلُ أحَدُكُمْ على الأمير أو الوالى، فيصدِّقه بالكذب، ويمتدحه بما ليس فيه».. !!

وكان استهلالاً بارعًا، بقدر ما هو عجيب..!!

واستعاد الناس من فورهم ما سمعوه عن واليهم الجديد، من أنه لا يمقُتُ فى الدنيا كلها ولا يحتقر من نقائصها شيئًا أكثر مما يمقتُ النفاق ويحتقره.

وكان هذا الاستهلال أصدق تعبير عن شخصية الحاكم الجديد، وعن منهجه فى الحكم والولاية...

* * *

فـ «حذيفة بن اليمان» رجل جاء الحياة مُزَودًا بطبيعة فريدة تتّسم ببغض النفاق، وبالقدرة الخارقة على رؤيته فى مكامِنه البعيدة...

ومنذ جاء هو وأخوه صفوان فى صحبة أبيهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتنق ثلاثتهم الإسلام، والإسلام يزيد موهبته هذه مضاءً وصَقْلا.. فلقد عانق «دينًا» قويًّا، نظيفًا، شجاعًا، قويمًا... يحتقر الجبن، والنفاق، والكذب...

وتأدَّب على يدى «رسول» واضح كفَلق الصبح، لا تخفى عليهم من حياته، ولا من أعماق نفسه خافية.. صادق وأمين.. يحب الأقوياء فى الحق، ويمقت الملْتَوِين، والمرائين، والمخادعين... !!

فلم يكن ثَمَّتَ مجال تترعْرَعُ فيه مَوْهبة «حذيفة» وتزدهر، مثل هذا المجال، فى رحاب هذا الدين، وبين يدى هذا الرسول، ووسْط هذا الرَّعيل العظيم من الأصحاب...!!

ولقد نَمَتْ موهبته فعلا أعظم نماء... وتخصص فى قراءة الوجوه والسرائر... يقرأ الوجوه فى نظرة، وَيَبْلوكُنْهَ الأعماق المسْتتِرَّة، والدخائل المخبوءة فى غير عناء...!!

ولقد بلغ من ذلك ما يريد، حتى كان أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، وهو الملهمُ الفَطِنُ الأريب، يستدلُّ برأى حذيقة، وببصيرته فى اختيار الرجال ومعرفتهم.

ولقد أُوتى «حذيفة» من الحصافة ما جعله يُدْرك أن الخير فى هذه الحياة واضح لمن يريده.. وإنما الشر هو الذى يتنكَّر ويتخفى، ومن ثمَّ يجب على الأريب أن يُعْنَى بدراسة الشرِّ فى مآتيه، ومظانِّه...

وهكذا عكَف «حذيفة» رضى الله عنه على دراسة الشرِّ والأشرار، والنفاق والمنافقين...

يقول:

«كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى..

«قلت: يا رسول الله، إنا كنا فى جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير.. فهل بعد هذا الخير من شر..؟

«قال: نعم..

«قلت: فهل بعد هذا الشر من خير..؟

«قال: نعم، وفيه دَخَن...

«قلت: وما دَخَنُه..؟؟

«قال: قوم يستنون بغير سنتى.. ويهتدون بغير هَدْيِى، تعرف منهم وتنكر..

«قلت: وهل بعد ذلك الخير من شر..؟؟

«قال: نعم! دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها..

«قلت: يا رسول الله، فما تأمرنى إن أدركنى ذلك..؟

«قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم..

«قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام..؟؟

«قال تعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل

شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».. !!

أرأيتم قوله: «كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير.. وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركنى».. ؟؟

لقد عاش «حذيفة بن اليمان» مفتوح البصر والبصيرة على مآتى الفتن. ومسالك الشرور ليتقيها، وليحذر الناس منها. ولقد أفاء عليه هذا بصرًا بالدنيا، وخبرة بالناس، ومعرفة بالزمن... وكان يدير المسائل فى فكره وعقله بأسلوب فيلسوف، وحصافة حكيم...

يقول رضى الله عنه:

«إن الله تعالى بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم، فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فَحَيِيَ بالحق من كان ميتًا...

«ومات بالباطل من كان حيًّا..

«ثم ذهبت النبوة، وجاءت الخلافة على منهاجها...

«ثم يكون ملكًا عضوضًا... !!

«فمن الناس من ينكر بقلبه ويده، ولسانه... أولئك استجابوا للحق...

«ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه، كافًّا يده، فهذا ترك شُعبة من الحق...

«ومنهم من ينكر بقلبه، كافًّا يده ولسانه، فهذا ترك شعبتين من الحق...

«ومنهم من لا ينكر بقلبه، ولا بيده، ولا بلسانه، فذلك ميت الأحياء».. !!!

ويتحدث عن القلوب وعن حياة الهدى والضلال فيها فيقول:

«القلوب أربعة:

* قلبٌ أَغْلَفُ، فذلك قلب الكافر...

* وقلبٌ مصفح، فذلك قلبُ المنافق..

* وقلبٌ أجرد، فيه سِرَاج يُزْهِر، فذلك قلبُ المؤمن...

* وقلبٌ فيه نفاق وإيمان، فمثلُ الإيمان كمثَل شجرة يُمِدُّها ماءٌ طيب.. وَمَثَلُ النفاق كمثل القُرْحة يُمِدُّها قَيْح ودم: فأيهما غلَبَ، غَلَبَ».. !!

وخبرة حُذيفة بالشر، وإصراره على مقاومته وتحدِّيه، أكْسبا لِسَانه وكلماته شيئًا من الحِدَّة، ويُنبئنا هو بهذا فى شجاعة نبيلة:

فيقول:

«جئتُ النبى صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إن لى لسانًا ذَرِبًا على أهلى، وأخشى أن يُدْخلنى النار...

«فقال لى النبى عليه الصلاة والسلام: فأين أنت من الاستغفار..؟ إنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرَّة»..

* * *

هذا هو حُذيفة عدوُّ النفاق، صديقُ الوُضوح..

ورجل من هذا الطراز، لا يكون إيمانه إلا وثيقًا.. ولا يكون ولاؤه إلا عميقًا.. وكذلكم كان حُذيفة فى إيمانه وولائه..

لقد رأى أباه المسلم يُصْرَع يوم أُحُد.. وبأيْدٍ مسلمة، قتلتهُ خطأ وهى تحسَبُهُ واحدًا من المشركين...!!

وكان حذيفة يتلفَّت مصادفة فرأى السيوف تَنوشهُ، فصاح فى ضاربيه: أبى... أبى.. إنه أبى...!!

لكن القضاء كان قد حُمَّ...

وحين عرف المسلمون، تولاهم الحزن والوُجوم.. لكنه نظر إليهم فى إشفاق ومغفرة، وقال:

«يَغْفِرُ الله لكم، وهو أرحَمُ الراحمين»...

ثم انطلق بسيفه صَوْبَ المعركة المشبوبة يُبلى فيها بلاءه، ويؤدِّى واجبه...

وتنتهى المعركة، ويبلغ الخبر رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلّم فيأمر بالدِّيَةِ عن والد حذيفة «حُسيْل بن جابر» رضى الله عنه، فيعتذر ابنه حُذيفة عنها، ويتصدَّق بها على المسلمين، فيزداد الرسول له حُبًّا وتقديرًا..!!

* * *

وإيمان حذيفة وولاؤه، لا يعترفان بالعجز، ولا بالضعف... بل، ولا بالمستحيل...

فى غزوة الخندق.. وبعد أن دبَّ الفشل فى صفوف كفار قريش وحلفائهم من اليهود، أراد الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقف على آخر تطورات الموقف هناك فى معسكر أعدائه..

كان الليل مظلمًا ورهيبًا... وكانت العواصف تزأر وتصطَخِب،

كأنما تريد أن تقتلع جبال الصحراء الراسيات من مكانها.. وكان الموقف كله بما فيه من حصار وعناد وإصرار يبعث على الخوف والجزع، وكان الجوع المضنى قد بلغ مبلغًا وعْرًا بين أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم...

فمن يملك آنئذ القوة، أيَّ قوة، ليذهب وسط مخاطِرَ حالكة إلى معسكر الأعداء ويقتحمه، أو يتسلل داخله، ثم يبلو أمرهم ويعرف أخبارَهم...؟؟

إن الرسول هو الذى سيختار من أصحابه من يقوم بهذه المهمة البالغة العُسْر...

تُرى من يكُونُ البطَل..؟؟

إنه هو.. حُذَيْفَة بن اليمان..!

دعاه رَسُول الله صَلى اللَّهُ عليه وسلم فلَبَّى، ومن صِدْقِه العظيم يخبرنا وهو يروى النبأ، أَنه لم يكن يملك إلا أن يُلَبى.. مُشيرًا بهذا إلى أنه كان يرهب المهمة الموكولة إليه، ويخشى عواقبها، والقيام بها تحت وطأة الجوع، والصقيع، والإعياء الشديد الذى خلفهم فيه حصار المشركين شهرًا أو يزيد..!

وكان أمرُ حذيفة تلك الليلة عجبًا...

فلقد قطع المسافة بين المعسكرين، واخترق الحصار... وتسلَّلَ إلى معسكر قريش، وكانت الريح العاتية قد أطفأت نيران المعسكر، فخيم عليه الظلام، واتخذ حذيفة رضى الله عنه مكانه وسط صفوف المحاربين..

وخشى أبو سفيان قائد قريش، أن يَفْجأهم الظلام بمتسللين من المسلمين، فقام يحذر جيشه... وسمعه حذيفة يقول بصوته المرتفع:

«يا معشَرَ قريش، لينظر كل منكم جليسه، وليأخذ بيده، وليعرف اسمه»...

يقول حذيفة:

«فسارَعْتُ إلى يد الرجل الذى بجوارى وقلت له: من أنت...؟؟ فقال: فلان بن فلان».. !!

وهكذا أمَّن وجوده بين الجيش فى سلام.. !

واستأنف أبو سفيان نداءه إلى الجيش قائلا: «يا معشَرَ قريش... إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام.. لقد هلكت الكُراع - أى الخيل - والخُفّ - أى الإبل.. وأخْلَفَتْنَا بنو قُرَيْظَة، وبَلَغنا عنهم الذى نَكْرَه، ولَقِينا من شِدَّة الريح ما تَرون.. ما تَطْمَئِنُّ لنا

قِدْر.. ولا تقومُ لنا نار.. ولا يَسْتَمْسِكُ لنا بناء.. فارتحلوا؛ فإنى مُرْتَحِل»..

ثم نهض فوق جمله، وبدأ المسير، فتبعه المحاربون..

يقول حذيفة:

«لولا عَهْدُ رَسُول الله صلى الله عليه وسلم إلىَّ ألاّ تُحدِثَ شيئًا حتى تأتينى، لقتلته بِسَهْم»..

وعاد حذيفة إلى الرسول عليه الصلاة والسلام فأخبره الخبر، وزفَّ إليه البُشرى..

* * *

إن الذى يرى «حذيفة»، ويتأمل تفكيره، وفلسفته، وعُكُوفَه على المعرفة، لا يكاد يتوقع منه أيَّة بُطولَة فى ميادين الحرب والقِتال..

ومع هذا، فإن حُذيفة يُخلِف فى هذا المجال كل الظُّنون..

ورَجلُ «الصَّوْمَعَةِ» العابد، المتأمِّل، لا يكاد يحمل سيفَه ويُقابل جيوش الوثنية والضلال حتى يكشف عن عبقرية تبهر الأبصار..

وحسبنا أن نعلم، أنه كان ثالثَ ثلاثة، أو خامس خمسة، كانوا أصحاب السبق العظيم فى فتوح العراق جميعها..!!

وفى همدان، والرىّ، والدّيْنَوَر، تَمَّ الفتح على يديه..

وفى معركة «نهاوند» العظمى، حيث احتشد الفُرس فى مائة ألف مقاتل وخمسين ألفا.. اختار أمير المؤمنين عمر لقيادة الجيوش المسلمة «النعمان بن مُقرّن» ثم كتب إلى «حُذيفة» أن يسير إليه على رأس جيش من الكُوفة..

وأرسل عمر إلى المقاتلين كتابه يقول:

«إذا اجتمع المسلمون، فليكُن كُلُّ أمير على جيشه..
ولْيكُن أمير الجيوش جميعًا النُّعْمان بن مقرن.. فإذا
استُشهِد النعمان، فليأخذ الرايةَ حُذيفة.. فإذا
استُشهِد، فجرير بن عبد الله»..

وهكذا، مضى أمير المؤمنين، يختار قواد المعركة حتى سَمَّى منهم سبعة..

والتقى الجيشان..

الفرس فى مائة ألف وخمسين ألفًا...

والمسلمون فى ثلاثين ألفًا، لا غير..

ونشِب قتال يفوق كل نظير.. ودارت معركة من أشد معارك التاريخ فدائية وعُنْفًا..

وسقط قائد المسلمين شهيدًا.. سقط «النعمان بن مقرن».. وقبل أن تهوى الراية المسلمة إلى الأرض، كان القائد الجديد قد تسلّمها بيمينه، وساق بها رياح النصر فى عنفوانٍ لَجِبٍ واستبسال عظيم.. ولم يكن هذا القائد سوى «حُذيفة بن اليمان»..

حمل الراية من فَوره، وأوْصى بألا يُذاع نبأ موت النعمان حتى تنجلى المعركة.. ودعا «نعيم بن مقرن» فجعله مكان أخيه «النعمان» تكريمًا له...

أنجزْ ذلك كله فى لحظات - والقتال يدور - بَديهتهُ المشرقة.. ثم انثَنَى كالإعصار المُدمدم على صفوف الفُرس صائحًا:

«الله أكبر: صدَق وَعْدَه!!

الله أكبر: نَصَرَ جُنْدَه!!».

ثم لَوَى زمام فَرسه صَوْب المقاتلين فى جيوشه ونادى: يا أتباع محمد.. ها هى ذى جنان الله تتهيأ لاستقبالكم، فلا تُطيلوا عليها الانتظار..

هَيَّا، يا رجال بَدْر..

تقدموا، يا أبطال الخندق، وأُحُد، وتَبُوك..

لقد احتفظ «حُذيفة» بكل حماسة المعركة وأشواقها، إن لم يكُن قد زاد منها وفيها..

وانتهى القتال بهزيمة ساحقة للفرس.. هزيمة لا نكاد نجد لها نظيرًا.. !!

* * *

هذا العبقرى فى حِكْمته، حين تضمُّه صَوْمَعَتهُ..

والعبقرى فى فدائيته، حين يقف فوق أرض قتال..

هو كذلك، العبقرى فى كل مُهِمَّة تُوكَل إليه، ومَشُورةٍ تُطْلب منه..

فحين انتقل «سعد بن أبى وقاص» والمسلمون معه من المدائن إلى الكُوفة، واستوطنوها..

وذلك بعد أن أنزل مُناخ المدائن بالعرب المسلمين أذًى بليغًا، مما جعل عمر يكتب لسعد كى يغادرها فورًا بعد أن يبحث عن أكثر البقاع مُلَاءَمة، فينتقل بالمسلمين إليها..

يومئذ، مَنْ الذى وُكل إليه أمر اختيار البقعة والمكان..؟

إنه «حُذيفة بن اليمان».. ذهب ومعه «سلمان بن زياد»، يرتادان للمسلمين المكان الملائم..

فلما بلغا أرض الكُوفة، وكانت حصباء جرداء مُرْمِلَة، شَمَّ حُذيفة عليها أنسام العافية، فقال لصاحبه: هنا المنزل إن شاء الله..

وهكذا خُطِّطت الكُوفة وأَحَالَتْهَا يدُ التعمير إلى مدينة عامرة..

وما كاد المسلمون ينتقلون إليها، حتى شُفِى سَقِيمهم، وقَوِى ضَعِيفُهم، وَنَبَضَتْ بالعافية عُرُوقُهم...!!

لقد كان «حُذيفة» واسع الذكاء، متنوع الخبرة، وكان يقول للمسلمين دائمًا:

«ليس خياركم الذين يتركون الدنيا للآخرة..
ولا الذين يتركون الآخرة للدنيا.. ولكن الذين
يأخذون من هذه.. ومن هذه».

* * *

وذات يوم من أيام العام الهجرى السادس والثلاثين.. دُعِىَ للقاء الله..

وإذْ هو يتهيَّأ للرحلة الأخيرة دخل عليه بعض أصحابه، فسألهم:

أَجِئْتُم معكُم بأكْفَان..؟؟

قالوا: نعم..

قال: أُرُونيها..

فلما رآها، وجَدها جديدة فَارِهَة..

فارتَسمت على شفتيه آخر بَسَمَاتِه السَّاخِرة، وقال لهم:

«ما هذَا لى بكَفَن.. إنما يكفينى لُفافتان بيضاوان ليس
معهما قميص..

فإنى لن أترك فى القبر إلا قليلا، حتى أُبَدَّل خيرًا
منهما.. أو شَرًّا منهما».. !!

وَتمتَم بكلمات، ألْقَى الجالسون أسماعهم إليها فسمعوها..

«مرحَبًا بالموت..

حبيبٌ جاء عَلَى شَوْق..

لا أفْلَحَ مَنْ نَدِمَ»..

وصَعدت إلى الله رُوحٌ من أعظم أرواح البَشر، وِمِن أكثرها
تُقًى، وتألقًا، وإخباتًا..